مجلة الآداب واللغات المجلد(09) العدد(01)جانفي2023، ص.ص105-123

الالتزام في الشعر الشعبي الجزائري الحديث

Commitment to modern Algerian popular poetry

بحاير عمار 1*

1. كلية الآداب واللغات جامعة منتوري قسنطينة 1

behair75@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/10/25 تاريخ القبول:2022/06/24 تاريخ النشر:2023/01/10

الملخص:

يكتشف الدارس للنصوص الشعبية الجزائرية الحديثة حضور الالتزام وقضاياه المختلفة، وأنواعه فيها، ولهذا تروم هذه الدراسة استنطاق بعض النصوص انطلاقا من مدونة شعبية جزائرية حديثة، للكشف عن رسالة الشاعر الشعبي الجزائري اتجاه وطنه، وأمته العربية في ظل الوجود الاستعماري، أضف إلى ذلك أنها تجيب عن سؤال هو: ما هي تجليات الالتزام السياسي والالتزام الاجتماعي والالتزام القومي في النص الشعبي الجزائري الحديث؟

الكلمات المفاتيح:

الشعر الشعبي الجزائري الحديث، الالتزام السياسي، الالتزام الاجتماعي، الالتزام القومي.

*المؤلف المرسل

Summary

Title of the article: Commitment to modern Algerian popular poetry.

By studying modern Algerian folk texts, we discover the presence of different issues and types. For this reason, this study intends to seek the texts with a modern popular tendency to reveal the message of the Algerian popular poet towards his homeland and his Arab nation during the colonial presence. One asks the question, what are the manifestations of political, social and national support in the modern popular Algerian text?

Key words:

The modern Algerian popular poem, political support, social support and national support

.الالتزام في الشعر الشعبي الجزائري الحديث

إن البحث في جينالوجيا الالتزام قديم في التراث الأدبي، تدل عليه مجموعة من الألفاظ مع أن الغرض من ذلك ليس التأصيل مثل مَا هو في العصر الحديث، إذ بالعودة إلى الشعر الجاهلي يتجلى لنا الالتزام عند الشعراء في المجالات الآتية الالتزام السياسي المشهور عند دريد بن الصمة في تكريس النظام القبلي، والقيم الحاضرة في الشعر الجاهلي، وإذا بحثنا عن تطور الالتزام عبر العصور، ألفينا ارتباطه بعدة قضايا حتى وصوله إلى الخِطاب الأدبي والنقدي الحديث؛ إذ ارتكز على حرية المبدع، ووظيفة الإبداع ورسالة الأديب وغيرها من العناصر التي تحدد أطراف الالتزام وقضاياه. والدراسات النقدية الجزائرية الحديثة عالجت أهم قضايا الالتزام وضروبه.

وإذا أردنا الحديث عن الالتزام في الشعر الجزائري الحديث، يكون ضروريا التطرق إلى الالتزام في النص الشعبي الجزائري الحديث، من باب الإحاطة

والشمولية، لتحديد معالم الالتزام، وَلَا ضير أن نقدم إطاراً نظرياً موجزاً عن مفهوم الالتزام لغة واصطلاحا.

1- الالتزام لغة:

جاء في معجم لسان العرب "والفعل لزم يلزِمُ، والفاعل لازم والمفعول به ملزوم، لزِم الشيء يلزَمه لزماً ولزوماً ولازمه ولِزاماً والتزمه إياهُ فالتزمهُ، ورجل لزمة: يلزم الشيء ولا يفارقه والالتزام: الاعتناق"[1].

وفي هذا السياق سجل القرآن الكريم معنى الالتزام أكثر من موضع لقوله تعالى: "قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا"[2]، فيكون العذاب والهلاك ملازما للكافرين في الدنيا والآخرة، ونجد ملازمة الشيء في قوله تعالى: "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا"[3].

وهكذا فالالتزام حقيقة دينية تتماشى وسنة الله في الكون، وكذا ملازمة الشيء حسب الموقف والفعل مع المرافقة دائما.

2- الالتزام اصطلاحا:

إن الالتزام من القضايا التي لم يتفق عليها الأدباء والنقاد؛ لاختلاف مذاهبهم ومواقفهم فهو لا يقتصر على الالتزام الأدبي والنقدي فقط، بل هناك أنواع من الالتزام الديني والالتزام السياسي والالتزام العسكري والالتزام الأخلاقي والالتزام الاجتماعي والالتزام القومي والالتزام الفني أي حسب القضية المطروحة. ومن باب الإشارة التاريخية نعرض بعض مواقف الالتزام، فالشعر الجاهلي موشح بالقيم التي تمثل الالتزام، إذ تعكس النزعة السلمية عند زهير بن أبي سلمى مظهرا لذلك بقوله:[4]

وقد قلتما: إن نُدركِ السّلمَ واسعا بمال ومعروف من القول نَسلمِ.

هذه الإشادة بالسلم والتنفير من الحرب تعكس رسالة الشاعر في زمانه، وتمثل قيمة من قيم الالتزام السياسي. والحقيقة أن أهم التزام على الإطلاق هو التزام الرسول صلى الله عليه وسلم اتجاه دينه وأمته، حيث أخرج الناس من الظلمات إلى النور استجابة لخطاب الله تعالى "الركِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"[5]. أضف إلى موقفه من الشعر والشعراء، كما جاء في سورة الشعراء.

لكن روح التفاخر والعصبية الجاهلية قد تم بعثها مرة أخرى في العصر الأموي في إطار الالتزام القبلي، حيث توضح الباحثة "مي يوسف خليف" هذا المظهر في قولها "ومن هنا ظلت القصيدة الأموية في إطارها القبلي أقرب ما تكون إلى الالتزام الفني لهذا الشكل الموروث الأمر الذي بدا أكثر انتشاراً وسيادة في دواوين الفحول الكِبار، فكان علامة بارزة من علامات التزامهم القبلي من ناحية، ومؤشرا من مؤشرات التزامهم الفني من ناحية أخرى"[6].

وإن ربطت الباحثة بين الالتزام الفني والالتزام القبلي، يبقى هذا الأخير جلياً في البيئة الأموية مثل ما نجده عند الشاعر الأموي الكميت بن زيد الذي مثل الالتزام السياسي في عصره، وحقيقة ذلك دفاعه عن بني هاشم في أحقيتهم في الخلافة. ويمكن أن نلمس مَا تذهب إليه الباحثة ضمن ظاهرة شعر النقائض.

أما في العصر الحديث، فقد اتخذ الالتزام عدة مفاهيم ومواقف، ونورِد هنا مفهوما لعبد المجيد دقياني "أن الأديب الذي يتربع على عرشه في برج عاجي بعيدا عن هموم مجتمعه ليس أديبا ملتزما، فالذي لا يصور حقائق مجتمعه ويوجهها إلى ما ينبغي أن يتجه إليه، ويبصر الناس بما يضرهم ليجتنبوه وبما ينقصهم ليسعوا إليه، يبقى عمله يجنح عبر أجنحة الخيال ولا يكتب له العمر الطويل"[7].

نستشف من هذا التعريف أن مفهوم الالتزام مبني على رسالة الأديب اتجاه مجتمعه والتفاعل معه، ويقارن بين الأديب الملتزم الذي يهتم بمحيطه الاجتماعي، وبين الأديب غير الملتزم الذي لا يعرف هموم وقضايا هذا المجتمع.

أما في الغرب فكان الالتزام وليد المذاهب الأدبية والفلسفية كالواقعية الاشتراكية والوجودية وهذه الأخيرة مثلها جان بول ساتر الذي بنى نظريته على الالتزام، وجعل مفهومه لا ينطبق على بعض الفنون. "الرسم والنحت والموسيقى لا يمكن أن تكون ملتزمة كالأدب، إذ لا يحال برسومها وأشكالها وأنغامها على مدلول آخر كما هي حال الأدب"[8].

وكانت معضلة سارتر متعلقة باللغة، وكذا الغموض الذي وظفه في التفريق بين الشعر والنثر، إلا أنه أسس لمفهوم الالتزام في الأدب الذي ربطه بمسؤولية الأديب وحريته خدمة لمجتمعه. ونسوق هذا الموقف على سبيل الإشارة لأن هذا الإطار النظري متشعب.

وعليه تبقى الكلمة وسيلة وسلاحًا للتعبير بصدقٍ عن موقف معين في المجتمع وتحمل المسؤولية مهما كانت نتيجتها، والحركة الشعرية الحديثة في الجزائر لم تخرج عن هذا الإطار وكما قُلنا سابقًا إن الشعر الجزائري الحديث واكب وسجل مختف القضايا السياسية والاجتماعية والقومية في الجزائر، فما هي وضعية النص الشعبي الجزائري الحديث من تلك القضايا؟

أولا: الالتزام السياسي.

الشعر الشعبي الجزائري:

أحدث الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر تأثيرًا عميقًا على المجتمع الجزائري تجلى في مظاهر الابادة وطمس الهوية الوطنية والتضييق على الدين واللغة العربية والعلماء والشعراء وغلق المساجد والمدارس ومَا إلى ذلك من الأفعال الشنيعة. هذه البيئة أفرزت التأثير الأكثر عمقا على فرنسا فكانت الثورة الجزائرية العظمى، هذا الوضع ولد ردة فعل تمثلت في حركات النضال بالسلاح وبالكلمة، وها هو الشعر الشعبي الجزائري يؤرخ ويواكب مختلف الحوادث السياسية "وينطبق على شعرائنا الشعبيين خصوصًا أولئك الذين عاشوا خلال فترة الاحتلال الفرنسي والذين التزموا بقضايا وطنهم التزاما عفويًا فلم يهادنوا الاستعمار طيلة وجوده بالجزائر"[9].

إن هذا الالتزام يستحق التعظيم والإشادة به، فرغم الحصار الطويل بقي الشاعر الشعبي متمسكًا بوطنه ووجوده، بل تجاوز إلى تخليد الثورات الجزائرية، ويؤكد التلي بن الشيخ على هذا الفضل بقوله: "لقد استطاع الشاعر الشعبي أن يخلد تاريخ الثورات الجزائرية المتكررة بطريقة نعتبرها من أهم ما قدمه الشعر الشعبي لدارسي الثورة – في تلك الظروف – دراسة تكون أكثر عمقًا وأوضح منهجًا من طريقة الاعتماد على الوثائق الرسمية الفرنسية"[10].

إضافة إلى ذلك عبر الشاعر الشعبي عن التزامه العفوي بصدق، مع رسم رِسالته في السراء والضراء، ونوضح من خلال "تجاوب الشاعر الشعبي مع تاريخ الوطن وسجل كل محطاته ونضالات شعبه، فجاءت القصيدة الشعبية مفعمة بالحماس والصدق والوطنية. فغنى الشاعر وفرح بالانتصارات، كما بكى وتألم للانكسارات"[11].

ونفهم من هذا الموقف وجود عناصر الالتزام الوطني المرتبط بالحالة السياسية، ونكتشف هذا أكثر يقول التلي بن الشيخ: "إن الشعر الشعبي قد عبر عن فترة الاحتلال تعبيرًا أمينًا، وصادقًا فصور حياة البؤس، والشقاء، وسجل آلام ودموع وأعطى الجراح والمتاعب كل عواطفه ووجدانه"[12].

فالنص الشعبي يعكس الالتزام السياسي الذي تمظهر خاصةً في التمسك بالوطن ورفض الاستعمار، حيث تناولت الدراسات النقدية الجزائرية الحديثة هذه القضية في عدة مواطن. ونورد هنا موقفا للعربي دحو في مقاربته للشعر الشعبي العربي في الجزائر، بعدما قدم مجموعة من النماذج الشعرية لعدة شعراء وصل إلى وجود وحدة في الموقف. والالتزام بالقضايا السياسية خاصة الثورة التحريرية من أجل الوصول إلى حد "الكشف عن وحدة الموقف وشموليته في كامل الوطن من لدن شعراء القصيدة الشعبية لأن القضية المتناولة لا تعني شاعرًا دون آخر، ولا منطقة دون غيرها، ومنها كذلك جعل المتلقي وبخاصة من الأجيال الجديدة في مركز القضية عَسَاه ينتفع بذلك من جهة، ويقتفي الأثر لفتح آفاق النص الشعبي في شتى

قضايا الشعب المعني بها، وبخاصة ما يتعلق بالثورة التحريرية، وقبلها شتى المقاومات، والقضايا العربية على الإطلاق"[13].

تلك الخلاصة تقدم خاصية أخرى للالتزام وهي الأثر الذي يتركه النص الشعبي في المتلقي من تفاعل واستمرارية. وإذا أخذنا على سبيل المثال لا الحصر مسألة الالتزام السياسي في الشعر الشعبي الجزائري الحديث فإننا نجد دواوين شعرية زاخرة بهذا الضرب من الالتزام، وبناءً على الدراسات النقدية السابقة لا بأس أن نقدم نماذج من الالتزام السياسي من مدونة شعبية لعربي دحو في التغني برمزية نوفمبر:

غَرّة نوفمبر الجزائر واشْ تْخَمَّمْ واشْ تْخَيَّرْ
راهْ العالمْ فيهْ حَايَرْ وتَنشَط لَخْيارْ[14]

هكذا نكتشف دلالة نوفمبر بالنسبة للوطن، فقد تجاوز أبعاده إلى العالم، كما أن الشاعر الشعبي يمجد الأحداث السياسية والتاريخية ويلتزم بها. ومن تجليات الالتزام السياسي نجد التعبير عن الوطن والظلم:

بْلادِي يَا بْلادِي عليكْ بْنِيتْ سَاسِي
عْلَى جَالَكْ خْرَجْت خَلّيتْ أُمْ اولادِي
فرانسا ما خَلَّاتْلِي غِيرْ جَلْدي علَى عْظامِي[15]

هذه الصورة الحية تمثل النزعة الوطنية حيث أرخ الشاعر الشعبي للثورة الجزائرية، وجعلها مصدر إلهامه وهذا ما يوضحه النص الآتي:

يا وَطني عْلِيكْ نْظَمْتْ الأَشْعارْ تَاريخْ الثّورَة مْسَجَّلْ في الكُرّاسْ.
يا لْجَزَايَرْ يا الغَالِيَة أُمْ الثُّوارْ أَوّلْ رصاصَة انطلقَت مَن لُوراسْ.
في أَوّل نُوفَمْبَرْ هذا الشِّي صارْ الرَّبْعَة وخَمْسين تاريخ الحَماسْ[16].

وفي هذا الشأن السياسي نلمس حضور الثوار في الشعر الشعبي باعتبار المطلب هو الدين الإسلامي:

حِزْب الثَّوارْ الله يَنْصَرْ حِزب الثَّوارْ
اللّي قامُوا بالدين اجْهَارْ[17].

والبيت الشعري يمثل العقيدة الدينية للشاعر الشعبي، وربطها بالنضال الثوري.

ثانيا الالتزام الاجتماعي:

لا شك أن التأثير السياسي على الحياة الاجتماعية كبير، والصورة القاتمة التي رسمتها فرنسا في الجزائر بكل أشكال الظلم والقتل والتعذيب قد أثرت تأثيرا بالغا على النظام الاجتماعي بكل فئاته، فحصل تردي الوضعية الاجتماعية من فقر وحرمان وجهل وتشريد وهجرة، وغير ذلك من أشكال المأساة الاجتماعية بكل أبعادها. وإذا كان الالتزام السياسي مرتبطا بالالتزام الاجتماعي رغم وجود حدود بينهما، فما هي مظاهر الالتزام الاجتماعي؟

التعبير عن المأساة الاجتماعية وأبعادها النفسية

إن القارئ للشعر الشعبي يكتشف حجم المعاناة الاجتماعية وأثارها على نفسية الفرد، والبيت الشعري التالي يلخص ذلك:

جَهْل ومَرْض وفاقَة والظُّلم ياسَرْ فوق الطاقَة[18]

وفي سياق آخر يصور الشاعر الشعبي حال المضربين:

لمَّا يَبْلَغني حالتْهُم تَشيَانْ نَبْكي بالدّموع عن المَحْزونِين[19]

فالشعر الشعبي ينقل لنا الحالة الاجتماعية المزرية التي كان يعيشها الشعب الجزائري بل يتجاوز ذلك إلى التعبير عن الحقائق النفسية الأليمة، وهذا ما يمثل مظهرا من مظاهر الالتزام الاجتماعي.

أما حضور المرأة الجزائرية في الشعر الشعبي الجزائري قد ورد في سياقات متعددة نسجل منها البكاء على الأولاد

طَلَّتْ لَمّيمَة وابْكاتْ قالتْ هذا وَلْدِي لِي مَاتْ
الحَرية راهِي جَاتْ وفرنسا رَحْلَت وَلّاتْ[20]

إن المواقف التي عبر عنها الشعر الشعبي الجزائري الحديث في تصوير المعاناة الاجتماعية التي مرت بها المرأة الجزائرية بكل أبعادها وبيان نضالها بالكلمة الصادقة اتجاه وطنها ليشير إلى حقيقة الالتزام الحق، وما النصوص الشعرية الشعبية الثورية الحديثة إلا معلما كاشفا لضروب الالتزام، وهذا ما أدى إلى تنوع موضوعات الشعر الشعبي الحديث. هذا الأخير صور "تصويرا وافيا الظروف العامة التي فرضت على الشعب الجزائري أنماطا من الحياة لا عهد له بها، وساير تغييرها، وترصد منعرجاتها، ورغم ما عرفته العلاقات الاجتماعية من تقلبات كان لها الأثر الواضح في موضوعات الشعر الشعبي"[21].

وعليه فالشاعر الشعبي الجزائري قد نقل إلينا وثيقة تاريخية تمثل الالتزام الاجتماعي، من خلال الكلمة الصادقة، والتي بقت حية إلى يومنا هذا.

الأغنية الشعبية:

الأغنية الشعبية شكل من أشكال الأدب الشعبي الجزائري، وسجلت حضورا مكثفا في الحياة الاجتماعية والسياسية التي مر بها المجتمع الجزائري، وهي عدة أنواع؛ مثل أغنية الأفراح، أغنية الفلاحين، الأغنية الثورية، وما إلى ذلك. ومصطلح الأغنية الشعبية لقي اهتماما كبيرا عند الباحثين رغم وجود الاختلاف في تحديد مفهومه. ولا بأس أن نعرض بعض التعاريف التي تؤطر هذا المصطلح؛ إذ عرفها الأستاذ الدكتور عبد القادر نطور بقوله: "الأغنية الشعبية هي التي تتواتر شفاها بين أفراد الجماعة مكتسبة صفة الاستمرار لأزمنة طويلة، وليست بالضرورة مجهولة المؤلف، كما أنها في رحلتها الطويلة عبر الأجيال قد يعتريها التعديل والتغيير بالزيادة أو النقصان أي أنها إبداع جمعي وفني مأثور وتتوسل بالكلمة واللحن والإيقاع"[22].

نستنبط من هذا النص شمولية خصائص الأغنية الشعبية باعتبارها شكلا من أشكال الإبداع الجماعي وتمثل القيم الجماعية وتصور الآمال والطموحات اتجاه الحياة وقدم الأستاذ الدكتور محمد عيلان تعريفا في هذا السياق: «لأنها تتضمن قيم الشعب وعاداته وتقاليده عبر تاريخه، وتصور آماله وطموحه ومشاعره إزاء الحياة»[23].

وقد وردت مجموعة من التعاريف للأغنية الشعبية في الدراسات النقدية والأدبية، لكننا نكتفي بهذين التعريفين ونؤكد على دور الأغنية الشعبية الثورية التي واكبت النضال السياسي في الجزائر، إذ كان دورها شبيها بدور السلاح في المعركة، فمثلت الموقف الصادق المصاحب للحوادث التاريخية. ذلك ما نتج عنه تحقيق الالتزام بأبعاده المختلفة، "ولأنها كانت تصور ما يعانيه الشعب من إحساس بالظلم، وتعبر عن آلامه وحزنه العميق."[24]

وما إصرار أمهاتنا وجداتنا على ترديد الأغاني الشعبية إلا دليل على استمراريتها وتأثيرها في الأجيال المتلاحقة. ونقدم هنا صورة الطائرة الفرنسية – خاصة–الطائرة الصفراء التي لم تبرح المخيال الشعبي، فتعلقت بالأذهان والألسن والزمان. كما نورد هنا بعض النماذج التي تعكس الالتزام السياسي.

الطَّيَّارَة الصَّفْرَا بَرْكَايْ مَا تَضْرْبِيشْ
الطَّيَّارَة الصَّفْرَا تَمْشِي بَالدِّفِيلِييق[25]

ونفس الشأن نجد توصيفا وحضورا للطائرة الكحلة:

الطَّيَّارَة الكَحْلَة تَمْشِي بالْعَسَّاسْ
الطَّيارَة الكَحلة واتبَرْدِي بالنِّيران[26]

إن القصدية من استعمال الطائرة بكل ألوانها هو زرع الخوف والإبادة، وبيان التفوق العسكري، وكل ذلك زاد من صمود الشعب الجزائري المناضل، فكان التعبير عن العواطف الصادقة وأثر تلك الطائرة.

"الطَّيارَة اللّي بِيكَاتْ في شَهر رمضان اللّي فَاتْ.
سَمْعَت ْلَمّيمة وَبْكَاتْ قالتْ بَابَا رَاهْ في الحَيَاة.
ما تَبْكِيشْ يا عِينِيَا ما تَبْكيشْ غِير من وَالَى.
ابْكي غِير علَى الشُّهداء اللّي خَلّاو ليتَامَى[27].

هذه الأغنية الشعبية تمس أعماق النفس الإنسانية في تصوير بكاء المرأة على الشهيد، وفي نفس الوقت تسجل الحوادث بزمانها. وبالتالي فهي تجمع بين الالتزام السياسي والالتزام الاجتماعي. وعليه نؤكد على دور الأغنية الشعبية الثورية في تأسيس خطاب الالتزام في الأدب الشعبي الجزائري الحديث بكل أبعاده النفسية والاجتماعية والسياسية. وتعتبر مصدرا من المصادر التاريخية خاصة في مرحلة الوجود الاستعماري، وقد قدم محمد عيلان في مقال صحفي عن مراحل الأغنية الشعبية الثورية مستنتجا خصائصها، ولا ضير أن ننقل أهم خاصية لها "أنها لا تتجه اتجاها عاطفيا ذاتيا فتعبر برومانسية عن مشاعر مبدعها، بل تتجه اتجاها استشرافيا، في نوع من التوق إلى الحرية والاستقلال."[28]

حقيقة أن النص الشعبي الجزائري الحديث يحمل قضايا أدبية ونقدية هامة ومازال يحتاج للدراسة والنظر في محتوياته بغية إضافة لبنة في الدراسات الشعبية الحديثة، وما قضية الالتزام إلا واحدة من تلك القضايا.

ثالثا الالتزام القومي

أ-القضية الفلسطينية

الدارس للشعر الجزائري الحديث يكتشف حضور قضايا الالتزام وأبعاده خاصة في السياق التاريخي الذي يمثل مرحلة الوجود الاستعماري في أرض الجزائر، فكانت الكلمة سلاحا للنضال عن الوطن والتعبير عن المعاناة الاجتماعية والنفسية للشعب الجزائري – كما تحدثنا سابقا – وقد تجاوز هذا النضال الحدود الجغرافية إلى البلاد العربية المسلمة، فتبلورت النزعة القومية عند الشعراء الجزائريين أمثال مفدي زكرياء وأبو القاسم خمار وصالح خباشة.

والشاعر الشعبي لم يكن بمنأى عن هذا الاتجاه القومي، فقد حضرت القضية الفلسطينية في النصوص الشعبية الجزائرية الحديثة والتي ربطها الشاعر الشعبي بثورته المباركة، ونؤكد هذا الربط بعنوان قصيدة المجد الخالد للشاعر "بلعيد علي"، حيث صور في البداية معاناة الشعب الجزائري ليختم قصيدته بيت محتواه يبقى خالدا فعلا في الشعر الشعبي الجزائري الحديث:

تَحْيَا فلسطينْ وجَميع العُربَانْ ويعيشْ السّلم في أَرْجاء المَعْمُورَة[29].

والناظر إلى هذا البيت يجد نصرة فلسطين أولا ثم جميع العرب ثانيا، وحضور النزعة السلمية العالمية، وهو تلازم منطقي بين محتوى الشطرين ولم يغفل النص الشعبي القدس الشريفة باعتبارها رمزا دينيا في أرض الأنبياء والمرسلين وموضع الإسراء والمعراج، لكنها في يد الصهاينة الذين عبثوا بها وبشعبها خرابا وقتلا وحصارا ويسوق شاعر شعبي لك الحقيقة:

والقُدسْ الشَّريف في يَد الكَفَره أَرض الله والأنبياء والمرسلين
وشَعْب فلسطين يَطَّايَشْ بَرَّه هارب من الموت متشرَّد مسكين.
غَزة يا إخوان رَجعت مَجْزره اليهود اِيذَبْحُو فيهم حَيِّين.[30]

إنها صورة حية لواقع مر يعيشه الشعب الفلسطيني بمختلف مظاهره، وما الوعي الذي ترجم هذه الصورة إلا دليل على الروابط الدينية والإنسانية التي جمع فيها الشاعر الشعب الجزائري وأمه الرؤوم الثانية فلسطين.

وفي الخطاب القومي نفسه يكشف الشاعر الشعبي الجزائري هدف اليهود ضد الدين الإسلامي راجيا العون من الله تعالى لتحقيق الحرية والانتصار، والأمل في زيارة بيت المقدس وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

انْصُرْنا يا رَبي عَالْقَوْم الكَفَرة اليهود واعنوهم عَدْيان الدِّين
أو تَتَّاحَدْ العرَب أو تَرجَع في مرة وانْصرْ يا رَب جَيش المُسلمين
بَيْت المَقدس أن شاء الله تَصبَحْ حُرَّة لإبراهيم الخليل نَمْشُوا زائرين[31]

ويفهم من الأبيات تعلق الشاعر الشعبي الجزائري بفلسطين؛ لأنها أرض الله المقدسة فهو يدعو الله تعالى أن ينصر فلسطين وجيش المسلمين ولا يؤمن إلا بالوحدة العربية، وهذا الحماس القومي وصفه الأستاذ العربي دحو بالشامل "بل شعور جمعي وطني عام، يأمن به الفلاح والطالب والأم والعامل والجندي وكل أفراد الشعب".[32]

هذه مواقف صادقة من شعراء شعبين جزائريين عبروا من خلالها على مساندتهم للقضية الفلسطينية وما يحصل على أرضها من أخطار داخلية وخارجية.

ب–تونس

ليس غريبا أن يربط الشاعر الشعب الجزائري مشاركته الوجدانية ومواقفه اتجاه البلدان العربية المجاورة لذا نجده يصور خطابا تفاعليا يمثل النزعة القومية اتجاه تونس بحكم خضوعها لنفس المستعمر.

يا فْرنسا أش فيها تونس راك اربَحْتيها نَبْض الحَقّ سكتيها الجزائر عَرفوا القَضية

عَرْفوا الحقيقة ايجِيبُوا الاستقلال بالثقة يجيبوه بكل طريقة بالسيف عليك يا مدعية[33]

يقارن الشاعر الشعبي هنا بين استقلال تونس والجزائر، وأن الشعب الجزائري له دراية بسياسة فرنسا، ولا يتحقق استقلال الجزائر إلا بلغة السيف. وفي سياق آخر يقدم الشاعر الشعبي الجزائري صورة متكاملة للنضال التونسي والجزائري ضد الاستعمار الفرنسي.

ثَارَت تُونس والجزائر اعْوَانَه أُوقَهْروا الاستعمار.

الاستعمار شَعْلت نيرانه أُووَقْدَت فيه النار.

دارتْ تونس إذاعة مُصَانَة أُومَنها طلَع صَوت الأحرار.

شَعب الجزائر زادْ إيمانه أُو طلَع اللُّوعار[34]

أضف إلى ذلك سجل النص الشعبي الجزائري الحوادث المشتركة بين البلدين وعلى رأسها حادثة ساقية سيدي يوسف. والنص الآتي يكشف عن الاتحاد بين البلدين في مواجه المستعمر الفرنسي، والتأكيد على تميز الحادثة التاريخية التي سجلها التاريخ.

تُونس والجَزائر قاموا في مَرَّا ذَاك اليُومْ اتَّحْدُوا فيه الجَيشَين.
أتفكَّر سَاقية سِيدْنا يُوسف واقْرَا سَالْ الرّجال المُؤرخين.[35]

ومن الواضح في هذا النص حضور الالتزام السياسي بمصاحبة الالتزام القومي. وفي نص آخر يؤكد الشاعر الشعبي الجزائري الرابطة الأخوية بين الجزائر وتونس، ومشاركتهما في محاربة الاستعمار الفرنسي، كما يوجه نقدا لتلك الحادثة محتواه التفاهم بين الجيشين وكذا زوال الفتنة. هذه الموضوعية التاريخية يسجلها النص التالي:

في السَّاقية مانا تْخَلَّطْنا أُوزَادت فِتنَة فُوقْ فِتنة.
احْنا وتُونس وْخِيَّتْنا دِيما اتخلط في العديان
ثَمّيك عَرْفوا قَوَّتنا أُوكْسَرْنا جِيش الخُسران.
مَن بَكرِي قديم الزمان تونس والجزائر أوخِيَان.[36]

رسالة الشاعر الشعبي الجزائري واضحة فهي تحمل قيم الأخوة والنضال سويا ضد المستعمر الفرنسي.

ج/ مصر

إن النص الشعبي الجزائري الحديث ليعتبر مصدرا من مصادر كتابة التاريخ، وفي نفس الوقت يكشف عن الوحدة الشعورية بين الجزائر والبلدان العربية،

فكانت مصر من البلدان التي ساندت الثورة الجزائرية والشاعر الشعبي الجزائري يكشف عن نزوعه القومي اتجاه مصر ورئيسها جمال عبد الناصر.

مِصْر لَحْنِينَه
يا مِصر يالَحْنِينه ما يَدّيكْ النّيفْ عَلِينا.
بْلادْنا قَعْدَتْ ارْهِينة يارَبّي فَرَّج عْلِينا.[37]

يفهم من هذا النص توجيه دعوة إلى مصر من أجل المساعدة بحكم الشعور الأخوي والعربي ثم نكتشف تسويغ هذا النداء القومي بأن الجزائر أصبحت رهينة لفرنسا. ثم يطلب الدعاء لله بأن يفرج ويزيل الظلم على أرض الجزائر الطاهرة. وفي نص ثان نلحظ توجيه الدعوة إلى القائد جمال عبد الناصر:

جمال عبد الناصر
عش يا جمال عش يا جمال.
عين الجزائر يا اوليدي.
يحيا الشمال الإفريقي[38]

نستنتج تغني الشاعر بالشخصية التاريخية المصرية جمال عبد الناصر، وتنبيهها بأهمية الجزائر التي لا يمكن الاستغناء عنها وأردف مشيدا بالوحدة الإفريقية.

والشاعر الشعبي الجزائري ملتزم كذلك بقضايا المغرب العربي وحتى الشعوب الإفريقية.

يَرجَع الازدِهارْ لْمَغْرِبْنا الكَبير وشُعوب إفْريقيا العَيْش الرَّغيد. [39]

وعطفا على ما سبق نقول أن الشاعر الشعبي الجزائري لم يكن منغلقا على قضيته الأساسية بل ساهم في نقل القضايا العربية بصدق وتفاعل رافضا الاحتلال بكل أشكاله متمنيا الازدهار لكل الشعوب العربية والإفريقية، بل مؤمنا بالنزعة السلمية العالمية.

وما النصوص السابقة إلا تأسيس لمفهوم الالتزام القومي انطلاقا من الثورة التحريرية "ويقتفي الأثر لفتح آفاق النص الشعبي في شتى قضايا الشعب الغني بها، وبخاصة ما يتعلق بالثورة التحريرية، وقبلها شتى المقاومات، والقضايا العربية على الإطلاق"[40].

ومن خلال استنطاق النصوص الشعبية السابقة نصل إلى تجلي رسالة الشاعر الشعبي الجزائري والتزامه بقضايا وطنه مع ربطها بأمته العربية، فكانت النزعة القومية التي تفاعل معها ورسم أبعادها، وهي مازالت حاضرة وأساسية إلى يومنا هذا في تأسيس مكانة الجزائر العربية والعالمية.

خاتمة

إن النص الشعبي الجزائري الحديث لينم عن وعي ثقافي عفوي كبير بتسجيل مختلف القضايا المتعلقة بالالتزام وضروبه من جهة، وبتمثيل رسالة الشاعر الشعبي الجزائري الصادقة المتفاعلة مع الأحداث السياسية والاجتماعية والقضايا القومية متطلعا إلى حياة تسودها الحرية والسلم العالمي من جهةّ أخرى.

ومن خلال رصد النصوص الشعرية الشعبية الجزائرية الحديثة يكون الالتزام بهذا المفهوم قد كشف تجليات الالتزام السياسي بتمجيد الوطن، وذكر الحوادث التاريخية خاصة الثورة التحريرية الكبرى، وكذا تقديس الشهداء، واستحضار صورة الآخر بوسائله وسياسته الاستعمارية مثل صورة الطائرة.

ثم نجد تجليات الالتزام الاجتماعي بتصوير المعاناة الاجتماعية والنفسية للشعب الجزائري من ظلم وفقر وجهل وخوف، وما معاناة المرأة الجزائرية في تلك الفترة إلا دليل على عمق الأثر الاجتماعي والنفسي.

وأخيرا يتمظهر الالتزام القومي في نصرة القضايا العربية، والسعي نحو الوحدة العربية ونشر السلم العالمي بأخذ العبر من ثورة الجزائر العظيمة، فحضرت

فلسطين المقدسة وتونس ومصر في النص الشعبي الجزائري الحديث لتكريس النزعة القومية والوحدة الشعورية.

تلك أهم تجليات ضروب الالتزام في النص الشعبي الجزائري الحديث.

الهوامش:

[1]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004، ط 3، مجلد 13، ص: 195.

[2]– القرآن الكريم: سورة الفرقان، الآية: 77.

[3]- القرآن الكريم: سورة الإسراء، الآية: 13

[4]– زهير ابن أبي سلمى: الديوان، دار صادر، بيروت، ص: 79.

[5]– القرآن الكريم: سورة إبراهيم، الآية: 1.

[6]– مي يوسف خليف: أبعاد الالتزام في القصيدة الأموية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ت، ص: 35.

[7]- عبد المجيد دقياني: الالتزام في الشعر محمد بلقاسم خمار، منشورات مخبر وحدة تكوين والبحث في نظرية القراءة

[8]– جان بول سارتر: ما الأدب؟ ترجمة محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، د ت، ص: 9 .

[9]– أحمد أمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص: 5 .

[10]- التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة (1830– 1945) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983 ص: 243.

[11]- محمد سعيدي: أشكال التعبير والوعي الوطني، مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، ملتقى وطني، 2002، ص: 101.

[12]–التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة (1830 – 1945) ص: 362.

[13]-العربي دحو: مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 2007 ص: 65.

[14]– العربي دحو: ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)، ثالة، الابيار، الجزائر، ط 2، ص: 13.

[15]– العربي دحو : الديوان ، ص : 16 .

[16]– العربي دحو : الديوان ،ص : 24 .

[17]- العربي دحو : الديوان ، ص : 61 .

[18]- العربي دحو : الديوان ، ص : 93 .

[19]– العربي دحو : الديوان ، ص : 77 .

[20]– العربي دحو : الديوان ، ص : 251 .

[21]- التلي بن الشيخ : دور الشعر الشعبي في الثورة (1830 – 1945) ص : 249 .

[22]– عبد القادر نطور: الأغنية الشعبية في الجزائر بمنطقة الشرق الجزائري نموذجا، رسالة دكتوراه كلية الأدب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة منتوري قسنطينة، 2008–2009، ص: 20.

[23]– محمد عيلان: التراث الشعبي الجزائري دراسات و بحوث ميدانية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية، الجزائر ، 2007 ، ص : 168 .

[24]- عبدالله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر، ط 1، 1981م ، ص: 377.

[25]– العربي دحو : ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية) ، ص : 290 –294 .

[26]- العربي دحو : الديوان، ص : 293 .

[27]- جميلة فلاح : أهازيج من الأوراس ، منشورات الشهاب ، باب الواد الجزائر ، ص : 86 .

[28]- محمد عيلان: (الأغنية الشعبية الثورية الجزائرية مصدر من مصادر كتابة تاريخ ثورة نوفمبر)، جريدة الخبر، العدد 9036، الجمعة 02 نوفمبر 2018 م، ص: 6.

[29]- العربي دحو: الديوان، ص: 125.

[30]– العربي دحو: الديوان، ص: 204.

[31]- العربي دحو: الديوان، ص: 205.

[32]- العربي دحو: مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر، ص 105.

[33]- العربي دحو: الديوان، ص: 204.

[34]– العربي دحو: الديوان، ص: 201.

[35]– العربي دحو: الديوان، ص: 203.

[36]– العربي دحو: الديوان، ص: 305.

[37]– العربي دحو: الديوان، ص: 307.

[38]– العربي دحو: الديوان، ص : 305 .

[39]– العربي دحو : الديوان، ص: 74 .

[40]- العربي دحو : مقاربات في الشعر الشعبي العربي في الجزائر ، ص 65 .